

تَكْوِينُ التَّكْوِينِ

بِرَاسَةِ تَارِيخِيَّةٍ وَ لاهُوتِيَّةٍ
فِي قِصَّةِ الْخَلْقِ وَ السُّقُوطِ
بِحَسَبِ سِفْرِ التَّكْوِينِ.

چون إدوارد

يَتَّخَذُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ بُعْدًا آخَرًا جِينَمَا يُقْرَأُ عَلَى مُسْتَوَى اللَّهِ/الإنسان، فهو إستعلان الله للإنسان و تَطَّلُعُ الإنسان لمعرفة الله. لذا فالكتاب هو تاريخ الله/الإنسان مُسَطَّرًا بِأَنْفَاسِ اللَّهِ^١ و يَدُ الْإِنْسَانِ، و فيه نستطيع أن نقرأ مُرَادَ اللَّهِ من وجود الإنسان و أشواق الإنسان تجاه الله. ينبغي ألا يُقْرَأَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسَ بَعِيدًا عن شخص يسوع المسيح، فهو الإنسان الحقيقي الذي يحل فيه كَمَالُ الْإِلَوهَةِ جَسَدِيًّا، كذلك أيضًا تُؤْمِنُ الْكَنِيسَةُ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ إِعْلَانٌ لِلْهِئَةِ/إِنْسَانِيٍّ بِلَا إِفْتِرَاقٍ أَوْ إِنْتِقَاصٍ. دُونَ الْكِتَابِ بَعْدِيهِ كَيْمَا يَكُونُ عَرْضًا لِرَحْلَةِ الْإِنْسَانِ مَعَ اللَّهِ مِنَ الْمَكَانِ وَالزَّمَنِ نَحْوِ الْإِبْدِيَّةِ، لِذَا يَبْدَأُ الْكِتَابُ بِخَلْقِ الْمَكَانِ -أَيِ الْكَوْنِ- و وسائل معرفة الزَّمنِ (بِحَسَبِ عَصْرِ تَدْوِينِ السَّقَرِ) -أَيِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ- و يَنْتَهِي بِرُؤْيَا آخِرِيَّةٍ. يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ بِتِرَاكُمِ خَيْرَاتِهِ عَلَى الْمُسْتَوَى الْفَرْدِيِّ وَالْجَمْعِيِّ (الْإِنْسَانِيَّةُ كُتْلًا)، وَ نَجِدُ هَذَا وَاضِحًا حِينَمَا تُمَعِّنُ النَّظْرَ فِي تَصَاعُدِ إِبْتِهَارِ الْإِنْسَانِ لِحَقَائِقِ اللَّهِ عَلَى مَرِّ الزَّمنِ. مِنْ هُنَا، وَ لَكِي لَا نُخْطِئُ مَقْصِدَ اللَّهِ مِنْ مَا دُونَ فِي الْكِتَابِ، يَنْبَغِي أَنْ نَدْخُلَ إِلَى زَمَنِ كُلِّ نَصٍّ وَ نَحْيَا إِبْتِهَارَ وَ ثِقَافَةَ الْكَاتِبِ بِلَ وَ لُغَتِهِ أَيْضًا، لِأَنَّهُ كَثِيرًا مَا يُبْتَدَأُ مَنِ قَرَأُوا الْكِتَابَ -و مِنْ فَسْرُوهُ- عَنْ مَقْصِدِ الْكَاتِبِ فَظَنُّوا فِي كَلِمَاتِهِ مَا لَمْ يَعْينِهِ مِنَ الْأَسَاسِ. هَذَا هُوَ حَالُ الْإِصْحَاحَاتِ الثَّلَاثِ الْأُولَى مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ، فَلَقَدْ إِسْتَجَدَّ خِلَافَ تَفْسِيرِيٍّ حَادٍ مَا بَيْنَ دَارِسِي الْكِتَابِ فِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ الْغَرِيضِ وَ دَارِسِيهِ فِي الْمُنَةِ سَنَةِ الْمَاضِيَّةِ، إِذْ لَمْ يُنْكَرْ أَحَدٌ مُعَلِّمِي الْكَنِيسَةِ تَارِيخِيَّةً^٢ رَوَايَةَ الْخَلْقِ وَالسَّقُوطِ سِوَى الْعَلَامَةِ أَوْ رِجِينُوسَ وَ لَكِنَّهُ لَمْ يُقَدِّمْ عَرْضًا لَاهُوتِيًّا مُتَكَامِلًا يَتِمَاشَى مَعَ تِلْكَ الرُّؤْيَا، لَكِنْ لَا يَسْعَا فِي هَذَا الْقَرْنِ إِلَّا أَنْ نَرَى فِي الْعَلَامَةِ أَوْ رِجِينُوسَ رَجُلًا قَدْ سَبَقَ عَصْرَهُ وَ مُلْهَمًا لِكُلِّ مَنْ يَقْرَأُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ بِأَمَانَةٍ وَ صِدْقٍ.

سَيَكُونُ الْبَحْثُ فِي هَذَا الْمَقَالِ عَلَى مَحَوْرَيْنِ، أُولَاهُمَا دِرَاسَةُ تَارِيخِيَّةٍ وَ أَدْبِيَّةٍ لِلْإِصْحَاحَاتِ الثَّلَاثِ الْأُولَى نَتَاجَ قِرَاءَاتٍ عَدِيدَةٍ لِلَاهُوتِيِّينَ مُعَاَصِرِينَ سَيَاتِي ذِكْرُهُمْ بِالتَّفْصِيلِ، وَ ثَانِيَهُمَا رُؤْيَا لَاهُوتِيَّةٍ وَ إِعَادَةُ صِيَاعَةِ لَتَدْبِيرِ الْخَلَاصِ. كَمَا يَتَطَلَّبُ الْأَمْرُ التَّشْدِيدَ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ ثَابِتٌ بِلَا شَكٍّ وَ لَكِنْ مَا نَحْتَاجُهُ الْيَوْمَ هُوَ أَنْ نُحَقِّقَ مَعَ ذَلِكَ الثَّبَاتِ دِينَامِيَّةً تَدْفَعُنَا أَنْ نَحْيَا إِيمَانًا يَقْتَرِبُ لِلْوَاقِعِ الْحَاضِرِ الَّذِي نَعِيشُهُ الْآنَ، يَتَجَسَّدُ فِيهِ وَ يُؤَسِّسُ لِلْمُسْتَقْبَلِ دُونَ أَنْ يَنْقُضَ أَسَاسَ الْمَاضِي^٣. كَمَا أَرْجُو أَنْ أَسْتَطِيعَ تَقْدِيمَ رُؤْيَا لَتَدْبِيرِ الْخَلَاصِ دُونَ الْفَصْلِ مَا بَيْنَ اللَّهِ وَ الْإِنْسَانِ، أَوْ اللَّاهُوتِ وَ الْوَاقِعِ (الْآنَ وَ الْهُنَا). وَ لِأَنَّ بَعْضَ الْأَفْكَارِ الْمَعْرُوضَةِ فِي الْمَقَالِ هِيَ أَفْكَارٌ غَيْرُ إِعْتِدَادِيَّةٍ، وَ لِذَا يُسَاءُ فَهْمُ الْمَقْصُودِ مِنْهَا سَاعَرَضَ تَعْرِيفَاتٍ لِأَهَمِّ التَّعْبِيرَاتِ فِي صُورَةِ أَسْئَلَةٍ وَ إِجَابَاتٍ قَبْلَ الدُّخُولِ لِلْمَقَالِ نَفْسِهِ، عَلَى أَنْ يَلْجَأَ الْقَارِئُ لِهَذِهِ التَّعْرِيفَاتِ إِذَا مَا إِسْتَشْعَرَ صُعُوبَةً فِي فَهْمِ أَيِّ فِقْرَةٍ مِنَ الْمَقَالِ.

(١) مَا هُوَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ ؟:

الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ هُوَ تَدْوِينٌ لِإِبْتِهَارَاتٍ وَ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ مَعَ اللَّهِ^٤، هَدَفُهُ الْوَحِيدُ هُوَ تَقْدِيمُ اللَّهِ لِلْإِنْسَانِ وَ تَقْدِيمِ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ مِنْ خِلَالِ رَحْلَةٍ طَوِيلَةٍ مَعَ الشَّعْبِ الْعِبْرَانِيِّ وَ تَطَوُّرِ أَفْكَارِهِ عَنْ اللَّهِ حَتَّى مَجَى إِبْنُ اللَّهِ مُتَجَسِّدًا فِي مَلَأِ الزَّمَانِ، وَ كَذَلِكَ أَيْضًا حَيَاةِ الْكَنِيسَةِ الْأُولَى وَ شَهَادَتِهَا لِشَخْصِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَ الْحَيَاةِ الْإِبْدِيَّةِ الَّتِي إِسْتَعْلَنَتْ فِيهِ.

(٢) هَلْ كُلُّ مَا يُقْرَأُ فِي الْكِتَابِ يَجِبُ أَنْ يُؤْخَذَ عَلَى ظَاهِرِهِ كَحَقَائِقٍ عَنْ اللَّهِ ؟:

بِالطَّبَعِ لَا، فَالْكِتَابُ يَسْتَخْدِمُ إِسْلُوبَ أَدْبِيٍّ بَشَرِيٍّ يَتَضَمَّنُ الْإِسْتِعَارَاتِ وَ التَّشْبِيهَاتِ الَّتِي إِنْ إِعْتَبِرَتْ حَقَائِقُ فِي ظَاهِرِهَا قَدْ تُشَوِّهُ إِيمَانَنَا عَنْ اللَّهِ. كَمَا يَجِبُ أَنْ نُرَاعِيَ ثِقَافَةَ الْكَاتِبِ وَ مُعْطِيَاتِ عَصْرِهِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا أَثْنَاءَ تَدْوِينِ إِبْتِهَارِهِ، فَبَعْضُ الْأُمُورِ إِعْتَبِرَتْ حَقَائِقُ لَا شَكَّ فِيهَا فِي زَمَانِ الْكَاتِبِ فِي حِينِ أَنَّهَا لَا تُمَثِّلُ حَقِيقَةَ الْآنَ فِي الْقَرْنِ الْوَاحِدِ وَ الْعَشْرِينَ^٥.

(٣) هَلْ كَانَ الْكَاتِبُ مُنْفَصِلًا عَنِ الْحَضَارَاتِ الْمُحِيطَةِ بِالشَّعْبِ الْعِبْرَانِيِّ ؟:

لَمْ يَكُنِ الْكَاتِبُ مُنْفَصِلًا عَنْهَا لِأَنَّ إِبْتِهَارَ الْإِنْسَانِ لَلَّهِ لَا يَنْفَصِلُ عَنِ الزَّمَنِ وَ الْمَكَانِ وَ الْوَاقِعِ الَّذِي يَحْيَاهُ، وَ بِالتَّالِيِ فَالْكِتَابُ قَدْ إِسْتَعْدَمُوا مَعَ يِعْرِفِهِ وَ يَفْهَمُهُ وَ يَسْتَخْدِمُهُ الشَّعْبُ نَفْسَهُ مِنْ أَفْكَارٍ وَ أَمْثَالٍ وَ قِصَصٍ مُتَدَاوِلَةٍ وَ شَائِعَةٍ فِيهِمْ بَيْنَهُمْ.

(٤) هَلْ يُخْبِرُنَا الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ بِحَقَائِقٍ عِلْمِيَّةٍ ؟:

لَا يُخْبِرُنَا الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ بِحَقَائِقٍ عِلْمِيَّةٍ، فَالْكِتَابُ غَابَتْهُ إِسْتِعْلَانُ اللَّهِ لِلْإِنْسَانِ، أَمَّا الْعِلْمُ فَلَهُ مِبَاجِئُهُ الَّتِي تَهْدَفُ لِتَفْسِيرِ الطَّبِيعَةِ وَ الْكَوْنِ كُتْلًا. وَ أَوَّلُ خَطَا يَرْتَكِبُهُ الْمُلْحَدُونَ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ هُوَ إِقْحَامُهُ فِي الْعِلْمِ ثُمَّ رَفْضُهُ بِحُجَّةٍ وَجُودِ أَخْطَاءٍ عِلْمِيَّةٍ فِيهِ، مَعَ أَنَّ الْكِتَابَ لَا يُنَاقِشُ الْعِلْمَ بَلْ عِلَاقَةَ اللَّهِ/الْإِنْسَانِ وَ الْإِنْسَانِ/اللَّهِ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَسْتَخْدِمُ بَعْضُ الْأُمُورِ الْمُعْتَبَرَةِ حَقَائِقُ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ -أَيِ زَمَنِ الْكَاتِبِ- بِغَرَضٍ مُعَيَّنٍ لَيْسَ هُوَ الْفَرَضِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ بَلْ لِسِيَاقٍ مُعَيَّنٍ يَخْدِمُ إِسْتِعْلَانُ اللَّهِ لِلْإِنْسَانِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ.

(٥) هَلْ تَطَوَّرَتْ أَفْكَارُ الْإِنْسَانِ عَنْ اللَّهِ أَمْ إِنْتَهَتْ فِي الرُّؤْيَا كَمَا بَدَأَتْ فِي التَّكْوِينِ ؟:

بِالتَّأَكِيدِ تَطَوَّرَتْ أَفْكَارُ الْإِنْسَانِ عَنْ اللَّهِ وَ هَذَا التَّطَوُّرُ لَا يَفْتَرِقُ عَنْ تَقَدُّمِهِ النَّقَافِيِّ وَ الْأَدْبِيِّ، لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ «نَفْهَمُ» غَايَةَ وَ أَسْلُوبَ كُلِّ كَاتِبٍ بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِ الزَّمَنِيِّ بِدُونِ أَنْ نَخْطِ الْأَسْفَارَ تَارِيخِيًّا وَ فِكْرِيًّا وَ ثِقَافِيًّا.

^١ (٢ تي ٣ : ١٦) "كُلُّ مَا كُتِبَ هُوَ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ (أَنْفَاسِ اللَّهِ (Θεόπνευστος)، يُعْذَرُ فِي التَّعْلِيمِ وَ التَّنْظِيمِ وَ التَّقْوِيمِ وَ التَّأْدِيبِ فِي الْبَرِّ".

^٢ رَفْضُ تَارِيخِيَّةِ رَوَايَةِ الْخَلْقِ وَالسَّقُوطِ لَا يَعْنِي إِنْكَارَ حَقِيقَتِهَا، سَيَجِيئُ تَفْصِيلُ هَذَا الْأَمْرِ لَاحِقًا.

^٣ "التَّغْلِبُ الْحَقِيقِيُّ مَزِيْجٌ مِنَ النَّظَرَةِ إِلَى الْمَاضِي، مِنَ الْمُنْطَلَقِ الْحَاضِرِ، لِلإِنْتِقَالِ نَحْوِ الْمُسْتَقْبَلِ، فِي حَرَكَةٍ دِينَامِيَّةٍ حَيَّةٍ".

"الْإِنْسَانُ ذَلِكَ السَّرُّ الْعَظِيمُ" لِأَبِّ فَاظِلِ سِيدَارُوسِ الْيَسُوعِيِّ ص ٢٧.

^٤ لِذَا فَالْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ لَيْسَ كِتَابَ عِلْمٍ، وَ إِسْتِنْبَاطُ حَقَائِقٍ عِلْمِيَّةٍ مِنْهُ هُوَ مُغَالَطَةٌ تُوَدِّي لِنَظَرَةِ خَاطِنَةٍ عَنِ الْكِتَابِ وَ تَضَعُهُ فِي تَضَادٍّ مُبَاشَرٍ مَعَ الْعَقْلِ.

^٥ تُشْمَلُ هَذِهِ الْأُمُورُ تَفْسِيرَاتٍ لِأُمُورٍ طَبِيعِيَّةٍ وَ ظَوَاهِرٍ كُوتِبِيَّةٍ وَ عِلْمِيَّةٍ، سَيَاتِي الْحَدِيثُ عَنْ إِثْنَيْنِ مِنْهَا فِي سِيَاقِ الْمَقَالِ.

الأسطورة “Myth” هي رواية شعبية تقليدية يعيش بطلها بمغامراته و مآثره في الماضي، و هي أولى وسائل تدوين تاريخ فكر الإنسان. تتنقل هذه الأخبار من شعبٍ لشعبٍ و تتزايد و تنتسخم إلى حدّ المبالغة لكن تظل ذات أساس تُحاك حوله الروايات^٦ لتفسير أمر ميتافيزيقي^٧. تتناول مسألة كبرى شديدة الجدّة و الحقيقة من جانب الإنسان مع وضعها في سياق قصصيّ^٨ قد يتضمّن بُعداً تاريخياً في الماضي لكنّه في نفس الوقت لا يُقدّم التاريخ الحقيقي بل تاريخاً لفكر الإنسان. أي أنها قصّة تروي أصل الوجود، لكن ما تحويه من إرتقاء بالخيال إلى أصل الوجود ليس بالحقيقة سوى تعبير عن نزول الإنسان إلى أعماق خبرته و كيانه^٩. كما يُمكن تحليلها نفسياً بأنها طريقة تفكير فعّالة بلجاً لها الإنسان حينما ينوي التعبير عن وجوده من وجهة نظر المعنى^{١٠}، فيُضمّن في الأسطورة بصياغة لغويّة محكمة تلك المحتويات اللاواعية التي تكمن في قرارة نفس البشر^{١١}.

شكّلت الأساطير جزءاً كبيراً من الإرث الإنساني القديم، لعل ما وصل إلينا منهم كتابات يرتبط أغلبها بأساطير ذات غرض ديني. كما أيضاً يجب التأكيد على حقيقة محورية، و هي أن الفكر الديني و العلمي لم يكونا بذلك التمايز الواضح و التّحديد مُقارنة بالعصر الحالي. فإن أخذنا أسطورة “إنوما إيليش”^{١٢} كمثال للفكر البابلي لوجدنا أنها تحمل جانباً دينياً كونياً في الوقت عينه، فمن جانب ديني تروي علاقة الآلهة بالإنسان (السبب) و من جانب آخر تشرح طريقة خلق الكون (الكيف)، كما تُشدّد الأساطير على دور الآلهة في صنع الأشفيّة، ممّا يُشير بقوة لوحدة المنظورين العلمي و الديني في تلك الحقبة الزمنية. أيضاً يرى البعض في تلك الأسطورة بُعداً سياسياً و قومياً، يهدف لإعلاء عبادة مردوخ إله بابل فوق آلهة بلاد الرافدين^{١٣}، و نفس الأمر نقرأه في سفر التكوين [روح الله يُرفّ على وجه المياه (١ : ٢)] إذ تُعتبر المياه الأولى إحدى الآلهة البابلية و تُدعى “تيامات”^{١٤} و منها جاء الإله مردوخ، هنا يُعلن الكاتب سيطرة “إلهيم” على آلهة الأمم التي ينسبون لها خلق الكون. سأختصّ بذكر أساطير الخلق في الشرق القديم نظراً لما فيها من ثراء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسفر التكوين، باعتباره نصّاً أدبياً مع كونه دينياً، و حيث أنه يُعتبر -من حيث التدوين و اللغة- نصّاً شرقياً. و سنجد ما بين تلك الأساطير روابط مشتركة ستكون ذات أهمية شديدة في دراسة سفر التكوين، و في التوصل للحقيقة التي ينشدها الكاتب.

ستجد تشابهات عديدة ما بين تلك الأساطير و ما بين النصّ التوراتي في الكتاب المقدّس، على أن الإطلاع على هذه التشابهات مُفيدٌ على عدّة محاور، منها أن نفهم تعبيرات كاتب سفر التكوين التي إستعار الكثير منها من الحضارات المحيطة، كما أيضاً سنجد تميّزاً كبيراً للنصّ العبراني الذي يظهِر فيه الإنسان محبوباً لدى الله و أن الخليقة قد خلقت لأجله. من شأنه أيضاً أن يُعلن لنا بُعداً أعمق في التعامل مع كلمة الله و هو أنها لا تستعلن الله فقط بل تستعلن الإنسان أيضاً، فالكتاب المقدّس يروي لنا تاريخ أفكار الإنسان تجاه الله منذ القديم مروراً بثقافات مصر القديمة و بابل و فارس حتّى الإمبراطورية اليونانية. في هذا البحث سناقش الأساطير الشرقية القديمة و سأبدأ من روايات خلق الإنسان إذ يحتاج الحديث عن خلق الكون سرداً أطول -أتركه لبحث آخر مُنفصل- و في نفس الوقت ليس له تأثير يُذكر على الفكر اللاهوتي اليهودي أو المسيحي. و سوف يكون العرض التاريخي لأساطير خلق الإنسان مختصراً و كافياً أن يُتيح المجال للدخول لإعادة الصياغة اللاهوتية التي هي غاية هذا البحث.

الأساطير القديمة عديدة، و سأكتفي بذكر بعضها :

١- ملحمة “جلجامش”.

٢- ملحمة “أطراحييس”.

٣- ملحمة “إنوما إيليش”.

٤- الأساطير المصرية.

^٦ “من أنت أيها الإنسان” للأب P. Grelot، ترجمة الأب صبحي حموي اليسوعي ص ١٤.

^٧ “أسطورة العود الأبدي” لميرسيا إلياد ص ١٦.

^٨ “عرّف إلى الكتاب المقدّس” للأب إسطفان شرنيتييه، ترجمة الأب صبحي حموي اليسوعي ص ٢٤-٢٥.

^٩ “كيف نفهم اليوم قصّة آدم و حواء” لكوستي بيندلي، ص ٨.

^{١٠} “التراث الإنساني في التراث الكتابي” لروبير بندكتي، ص ١٣١.

^{١١} المرجع السابق ص ١٢٩.

^{١٢} تُترجم “جينما في العلى” أقدم أساطير الخلق في بابل (سبائي ذكرها تفصيلاً)، و “إنوما إيليش” هما أول كلمتين من النصّ بحسب عادة الشعوب القديمة في تسمية الكتب، فسفر التكوين بحسب التسمية العبرية גֵּנְמָא בְּבֵלָא أي “في البدء”، و سفر الخروج יְצִיאָה שְׁמֹנֶה אֵי “و هذه أسماء”، و هكذا.

^{١٣} Gowan, D. E. (1988). From Eden to Babel : A commentary on the book of Genesis 1-11. International theological commentary (10). Grand Rapids, Mich.: W.B. Eerdmans Pub. Co.

^{١٤} Astley, J., Brown, D., & Loades, A. (2003). Creation : A reader. "A Continuum imprint." (35). London; New York: T&T Clark.

(أ) خَلَقَ الْإِنْسَانُ :

[(تك ١ : ٢٧ - ٢٨) وَ قَالَ اللهُ : "لِنَصْنَعِ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَمِثَالِنَا وَلِنَسَلْطُ عَلَى أَسْمَاكِ الْبَحْرِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَبَالِهَائِهِمْ وَجَمِيعِ وَحُوشِ الْأَرْضِ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ". فَخَلَقَ اللهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. وَبَارَكَهُمُ اللهُ ... (تك ٢ : ٧) وَجَبَلَ الرَّبُّ الْإِلَهُ الْإِنْسَانَ ثَرَابًا مِنَ الْأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ، فَصَارَ الْإِنْسَانُ نَفْسًا حَيَّةً.]^{١٥}

مَلَحَمَةُ "جَلْجَامِش"	مَلَحَمَةُ "أَطْرَاحْسِيس"	مَلَحَمَةُ "إِنُومَا إِيلِش"	أَسَاطِيرُ أُخْرَى
تَصَوَّرَتْ "أُرُورُو" فِي لُبِّهَا مِثْلًا (صُورَةً) لـ "أَنُو"، وَ غَسَلَتْ "أُرُورُو" يَدَيْهَا، وَ أَخَذَتْ قَبْضَةً طِينٍ وَرَمَتْهَا فِي الْبَرِّيَّةِ خَلَقَتْ فِي الْبَرِّيَّةِ "إِنْكِيدُو" الصَّنْدِيد ^{١٦}	الَّذِيذْبَحُ إِلَهُ فَيَتَطَهَّرُ جَمِيعُ الْإِلَهَةِ فِي هَذَا الْحَمَامِ، وَ تَأْخُذُ "نِنْتُو" لَحْمَهُ وَدَمَهُ وَ تَمَزْجُهُمَا بِالطِّينِ حَتَّى يَخْتَلِطَ الْإِلَهُ وَ الْإِنْسَانُ فِي الطِّينِ ... وَ لِيَكُنْ بِهَذَا اللَّحْمِ الْإِلَهِيُّ رُوحٌ، فَيَبْدُو الْإِنْسَانُ حَيًّا بِهَذِهِ الْعَلَامَةِ لئَلَّا يَنْسَى أَحَدٌ أَنَّهُ رُوح ^{١٧}	[عندما سمع "مردوخ" كلام الآلهة تحرك قلبه ليخلق ما هو حسن، حدث أباه "أيا" بما يجول في خاطره قائلاً : "إني جامع دمًا ^{١٨} ، إن خالق عظمًا سأخلق متوحشًا و سيكون اسمه إنسانًا ... سأفرض عليه خدمة الآلهة لكي تستريح" ... أيا الحكيم خلق البشر لخدم الآلهة، إنه عمل يفوق الإدراك، كما صممه مردوخ هكذا خلقه أيا ^{١٩}]	بعض الترجمات السومرية تشير إلى أن الإنسان الأول قد تقاسم نوعاً ما الوجود الإلهي، النفخة الحية من "إينيكي" أو الدم من الإلهة "لوجما" ^{٢٠} .

نَجِدُ بَعْضَ التَّشَابُهَاتِ مَا بَيْنَ الرِّوَايَةِ التَّوْرَانِيَّةِ وَ مَا بَيْنَ الْأَسَاطِيرِ الْأَقْدَمِ مِمَّا يُشِيرُ أَنَّ كَاتِبَ التَّكْوِينِ كَانَ عَلَى دِرَايَةٍ بِتِلْكَ الْأَسَاطِيرِ، بَلْ وَ إقْتَبَسَ مِنْهَا وَ صَاغَ الرِّوَايَةَ التَّوْرَانِيَّةَ فِي سِيَاقٍ يَتَّفَقُ مَعَ الْإِيمَانِ الْعِبْرَانِيِّ. فَنَرَى أَنَّ اللَّهَ وَاجِدٌ وَ قَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مُحِبُّوْبًا وَ بَارِكُهُ وَ رَأَى أَنَّهُ حَسَنٌ، لَا كَمَا تَرَوِي أَسَاطِيرُ بَابِلَ وَ غَيْرَهَا أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ اسْتَدْعَى لِلْوُجُودِ كَيْمَا يَكُونُ طَرَفًا فِي صِرَاعِ الْإِلَهَةِ أَوْ كَيْمَا يَكُونُ خَادِمًا مُهَانًا. وَ لَكِنْ عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ إِحْتَقِظَ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ^{٢١} عَلَى صُورَةِ الْإِلَهَةِ وَ مِنْهُ نَسَمَةُ الْحَيَاةِ، وَ أَيْضًا رَاحَةُ الْإِلَهَةِ بَعْدَ خَلْقِهِ الْإِنْسَانَ. وَ نُلَاحِظُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ كَلَّفَ الْإِنْسَانَ بِرِعَايَةِ جَنَّةٍ عَدَنَ عَلَى خِلَافِ مَلَحَمَةِ "إِنُومَا إِيلِش" الَّتِي خُلِقَ فِيهَا الْإِنْسَانُ لِيَحْمِلَ عَنَاءَ خِدْمَةِ الْإِلَهَةِ، مِنْ هُنَا يُمَكِّنُ أَنَّ تَرْتَبَ الْأَمْرِ بِشَكْلِ مَنْطِقِي وَ سَيُتَضَحَّ هَذَا بِالْأَكْثَرِ فِي الصَّفَحَاتِ الْقَادِمَةِ حِينَمَا نَتَابَعُ مَعًا تَحْلِيلَ سَفَرِ التَّكْوِينِ، أَنَّ كَاتِبَ سِفَرِ التَّكْوِينِ قَدْ اسْتَعَانَ بِثَقَافَتِهِ وَ مَعْرِفَتِهِ بِرَوَايَاتِ الْخَلْقِ فِي الشَّرْقِ الْقَدِيمِ لِكِي يُقَدِّمَ الرِّسَالَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِلشَّعْبِ الْعِبْرَانِيِّ. أَيُّ أَنَّ الْكَاتِبَ قَدْ أَعَادَ صِيَاعَةَ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الشَّرْقِ، وَ نَسَجَ مِنْهَا الرِّوَايَةَ التَّوْرَانِيَّةَ الَّتِي تُقَدِّمُ فِكْرَ اللَّهِ تَجَاهَ الْإِنْسَانَ، وَ هُوَ أَنَّ اللَّهَ مُحِبٌّ لِلْبَشَرِ وَ لَا يَسْعَى لَشِقَائِهِمْ، بَلْ اسْتَدْعَاهُمْ لِلْوُجُودِ بِحُبٍّ كَيْمَا يَكُونُوا مُتَسَلِّطِينَ عَلَى الْخَلِيقَةِ كُلِّهَا. وَ أَجَادَ التَّعْبِيرَ عَنْ مَقْصَدِ اللَّهِ حِينَمَا اسْتَعْمَلَ تَعْبِيرَ "الرَّاحَةِ" وَ رَبَطَهُ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ سِدًّا عَلَى الطَّبِيعَةِ لَا عِبْدًا لَهَا، لِيُشِيرَ أَنَّهُ لَا رَغْبَةَ لَدَى اللَّهِ فِي التَّسَيِّدِ وَ السَّيْطَرَةِ بَلْ أَنَّ رَاحَتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ أَنَّ يَحْيَا الْإِنْسَانُ "حَيَاةَ الشَّرَكَةِ"^{٢٢} مَعَهُ فِي حُرِّيَّةٍ وَ كَمَالٍ.

(ب) جَنَّةُ عَدَنَ :

[(تك ٢ : ٨) وَ غَرَسَ الرَّبُّ الْإِلَهُ جَنَّةً فِي عَدَنَ شَرْقًا وَ جَعَلَ هُنَاكَ الْإِنْسَانَ الَّذِي جَبَلَهُ ... (١٠) وَ كَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدَنَ فَيَسْقِي الْجَنَّةَ وَ مِنْ هُنَاكَ يَتَشَعَّبُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ فُرُوعٍ ... (١٥) وَ أَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهُ الْإِنْسَانَ وَ جَعَلَهُ فِي جَنَّةٍ عَدَنَ لِيَقْلَحَهَا وَيَحْرُسَهَا.]

نَجِدُ تَشَابُهًا آخَرَ مَا بَيْنَ الرِّوَايَةِ التَّوْرَانِيَّةِ^{٢٣} وَ مَا بَيْنَ أُسْطُورَةِ "أَنْكِي وَ نِنَهْرَاج" السُّومَرِيَّةِ وَ هُوَ الْجَنَّةُ-مَكَانُ الرَّاحَةِ- إِذْ نَجِدُ آدَمَ يَحْيَا فِي سَلَامٍ مَعَ الْحَيَوَانَاتِ بَلْ وَ يُسَمِّيهَا أَيْضًا، لَا يَمْرَضُ وَ لَا يَخْشَى الْمَوْتَ وَ لَا الْإِفْتِرَاسَ، هَذَا مَا نَقَرَاهُ فِي أُسْطُورَةِ "أَنْكِي وَ نِنَهْرَاج" عَنْ "يِلْمُون"^{٢٤} الْمَدِينَةِ الشَّرْقِيَّةِ :

^{١٥} جميع الإقتباسات الكتابية من التَّرجمة اليسوعِيَّة الكاثوليكيَّة.

^{١٦} "التَّراث الإنساني في التَّراث الكتابي" لِرُوبِير بنديكتي، ص٧٣.

^{١٧} "من أنت أيها الإنسان" للآب P. Grelot، ترجمة الآب صُبْحِي حموي اليسوعي ص١٦.

^{١٨} لاحظ أن آدم "EDEM" يعني الأرضي أو الأحمر و في عِدَّة مواضع تأتي بمعنى إنسان.

^{١٩} "أثر الكتابات البابلية في المدونات التَّوْرَانِيَّة" للآب سُهَيْل قَاشَا، ص١٢٤-١٢٥.

^{٢٠} "تاريخ المعتقدات و الأفكار الدينيَّة" لميرسيا إيلاد ص٨٣.

^{٢١} تشكيل الآلهة للإنسان من طين مذكور أيضاً في كتابات مصر القديمة، حيثُ يُشكَّلُ الإله "خنوم" الإنسان قبل ولادته. و في نسخة أحدث من أسطورة سفينة أطراحسيس نقرأ "أصبح البشر يملأون البحر و كأنهم صغار السمك، لقد رجع البشر إلى أصلهم و تحوّلوا جميعاً إلى طين".

"إنجيل بابل" خزعل الماجدي، ص١٧٩.

^{٢٢} "مجد الله هو الإنسان الحي، و حياة الإنسان أن يرى الله"، القديس إيرينيوس أسقف ليون.

^{٢٣} أيضاً قارن مع (رو ٢١ : ٤) و (إش ٢٥ : ٨) و (١٩ : ٦٥) و (١١ : ٦-٧) و (٢٥ : ٦٥).

^{٢٤} أقدم ذكر لـ "يِلْمُون" يرجع لحوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م، كما يوجد لها شبيهة في الحضارة المصريَّة و هو حقول "إيارو" أو "عارو".

[”دلمون“ مكان طاهر، ”دلمون“ مكان نظيف، ”دلمون“ مكان ساطع. في ”دلمون“ لا يطلق الغرب نعيه، ولا الحداة صيحاتها، ولا يفتك الأسد ولا ينقض الذئب على الحمل، ولا يعرف الكلب الأكل للجداء، ولا يعرف الخنزير البري الأكل للخبوب. لا يقول مريض العينين: أشعر بالعمى في عيني، ولا يقول مَجُوع الرأس: أشعر بالعمى في رأسي، ولا تقول المرأة العجوز: إني عجوز، ولا يقول الرجل العجوز: إني عجوز. ولا يطلق عند المدينة أي نحيب^{٢٦}].

كما يتفق الوصف الوارد في التكوين عن جنة عدن^{٢٧} مع الأسطورة حيث نجد دلمون تُسقى بـ ”مياه الوفرة“^{٢٨} (السطور ٥٥ - ٦٤)، وبحسب الأسطورة الأوغريتيّة ينبع فيها نهران من نفس المصدر^{٢٩} حيث يسكن الإله ”إيل“^{٣٠}، وبحسب ملحمة ”أطراحييس“ عاش ”زيوسودرا“^{٣١} الذي نجا من الطوفان حياة أبدية في ”دلمون“^{٣٢}.

(ج) شجرة الحياة ومعرفة الخير والشر :

[”تلك (٢ : ١٦ - ١٧) وأمر الرب الإله الإنسان قائلا: ”من جميع أشجار الجنة تأكل، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً“ ... (٣ : ٢٢) وقال الرب الإله: ”هكذا الإنسان قد صار كواحد منا، فيعرف الخير والشر. فلا يمتد الآن يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيخا لئلا بد“].

انتشر في الأدب الشرقي القديم وجود نبات يُعطي حياة أبدية، فمثلاً في مصر القديمة^{٣٣} ساد الاعتقاد بأن الإله Thoth يكتب أسماء الملوك^{٣٤} على أوراق شجرة Ished كيما ينالوا سنيهاً لا تنتهي^{٣٥}. كما تروي أيضاً ملحمة ”جلجامش“ رحلته الطويلة في البحث عن نبتة الحياة، ودار هذا الحوار فيما بينه وبين أوتانبشيتيم :

[”سأفتح لك يا جلجامش سرّاً خفياً، أجل سأبوح لك بسر من أسرار الآلهة. يوجد نبات مثل الشوك ينبت في المياه، إنه كالورد شوكه يخز يدك كما يفعل الورد“^{٣٦}، فإذا ما حصلت يدك على هذا النبات وجدت الحياة الجديدة“ ... وقال جلجامش لأورشناي ”إن هذا نبات عجيب، يستطيع المرء أن يطيل به حياته ... سيكون اسمه «يعود الشيخ إلى صباه كالشباب»، وأنا سأكله في آخر أيامي حتى يعود شبابي“^{٣٧}. ... أبصر جلجامش بركة ماء ماؤها بارد، فنزل يغتسل في مائها، فشمت حياة^{٣٨} عرف النبات وخرجت واختلطت النبات ... فجلس جلجامش عند ذاك وأخذ يبيكي حتى جرت دموعه على وجنتيه“^{٣٩}]

يبدو أن ما استخدمه كاتب سفر التكوين هو بشكل أو بآخر نفس معطيات الأسطورة البابليّة مع إعادة النظر في الغرض منها، فهنا نرى أن الله قد أعطى الإنسان حياة متعومة تتوقف على طاعة الوصية بدلاً من الحياة التي سرقت النبتة من جلجامش صارت الحياة في الرواية الثوراتية مصدر خديعة الإنسان الساذج الذي لم يعرف الشر. في حين يظل الإطار المشترك ما بين الرواية الثوراتية والأساطير البابليّة هو سعي الإنسان وراء الخلود وعجزه في إيجاده، فالحياة أفقدت جلجامش نبتة الحياة والخلود مع أوتانبشيتيم في دلمون وأفقدت آدم الخلود والراحة مع الله في عدن.

The Anchor Yale Bible Dictionary (1:328). New York: Doubleday.

²⁵ Elwell, W. A., & Beitzel, B. J. (1988). Baker encyclopedia of the Bible. Map on lining papers. (543). Grand Rapids, Mich.: Baker Book House.

²⁶ ”من أنت أيها الإنسان“ للأب P. Grelot، ترجمة الأب صبحي حموي اليسوعي ص ٢٩.

²⁷ كلمة ”عدن“ في أصلها مستوحاة من كلمة ”Edino“ الأكاديّة والتي تعني أرض مسطحة واسعة.

The Book of Genesis. Chapters 1-17. The New International Commentary on the Old Testament (161).

²⁸ The Anchor Yale Bible Dictionary (2:906). New York: Doubleday.

²⁹ (تلك ٢ : ١٠) ”وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ومن هناك ينشعب فيصير أربعة فروع“.

³⁰ Ibid.

³¹ الذي سمي ”أوتانبشيتيم“ في ملحمة ”جلجامش“ التي تعبّر صياغة أحدث لملحمة ”أطراحييس“.

³² ”من أنت أيها الإنسان“ للأب P. Grelot، ترجمة الأب صبحي حموي اليسوعي ص ٤٨.

The Anchor Yale Bible Dictionary (4:1124). New York: Doubleday.

³³ الدولة القديمة والوسطى.

³⁴ <http://www.oocities.org/timesquare/alley/4482/Ished3.html>

³⁵ Margaret R. Bunson, Encyclopedia of Ancient Egypt (183).

³⁶ لعل هذا هو سبب أمر الله للإنسان أن لا يلمس ثمر شجرة معرفة الخير والشر (تلك ٣ : ٣).

³⁷ هذا يُفسّر سبب منع الله للإنسان من أن يأكل من شجرة الحياة بعدما أخطأ، أنه لم يعد مستحقاً أن يأكل منها فيعود كما كان قبل الخطيئة.

³⁸ الحياة في ديانات الشرق القديم ترمز للشر وفي مصر القديمة شاع الاعتقاد بوجود ثعبان كبير يُدعى ”عيب“ يُقابلة المتوفى في طريقه إلى الأبدية وينبغي قتله وإلا هدد أبدية المتوفى، ويمكن أن تلاحظ ظهوره على جدران المقابر وتحديدًا في ساعات الليل الإثني عشر من رحلة المتوفى.

<http://www.grayflannelsuit.net/blog/wp-content/uploads/2005/08/apep-egyptian-demon.jpg>

³⁹ ”ملحمة جلجامش“ طه باقر، ص ١٠٣.

نظرة عامة على الإصحاحات الأولى من التكوين :

بمقارنة النص التوراتي بالأدب الأسطوري الشرقي نستخلص الآتي،

- (١) من غير المعقول أن يُقرأ النص التوراتي باعتباره تقريراً حرفياً عن "طريقة" خلق الكون، بل هو صياغة عبرانية أدبية مسوقة بروح الله لكي يُستعلن فيها فكر الله تجاه الإنسان و هو أن الله واحدٌ مُنفخٌ على ذاته^{٤٠} و على آخر هو الإنسان، أي أنه خلق الإنسان و دَعاه لشركته لا لإذلاله كما جاء بأساطير بابل.
- (٢) تنطوي رواية التكوين التوراتية على جانب إنساني حقيقي و هو مأساة الإنسان في البحث عن حياة لا يقطعها موتٌ و لا يورقها تعب، و تنتهي الرحلة بالفشل كمثيلاتها من الأساطير الشرقية، إلا أن الوعد المعطى للحية يظل قائماً بأن نسل المرأة يسحق رأسها، أي أن الله قد توعّد الشر بأن ينتهي و بأن الإنسان لن يظل أسير هذا الفشل.
- (٣) لا تُعبّر الرواية التوراتية عن تاريخ حقيقي، و لكنها تُعبّر عن تاريخ فكر الإنسان بشكل حقيقي.
- (٤) بعض الأحداث في الرواية التوراتية تظل غامضة و بلا تفسير مقبول إذا ما تمّ التعامل معها بمعزلٍ عن الحضارات القديمة.
- (٥) لا يُقصد بأحداث الرواية التوراتية شخصاً بعينه بل تخص الجنس البشري على اختلاف زمنه و لغته و ثقافته، فالجميع يبحث عن الأبدية و يفشل في أن يجدها بمعزل عن الله، كما يتعرّض جميعنا للفشل في التمسك بالفضيلة أو ما عبّر عنه الكاتب بالوصية.

^{٤٠} يبدو هذا ظاهراً من الحوار الذي يقوم به "إيلوهيم"، راجع (تك ١ : ٢٦) و (٣ : ٢٢).

الفصل الثاني : "التكوين، قراءة لاهوتية معاصرة"

ما نحتاجه الآن هو أن نُعيد قراءتنا لسفر التكوين بدون أن نَعزله عن ثقافة بيئته. مضمون سفر التكوين هو إبتعلان الله للإنسان من خلال ما يفهم و ما يعرف، أي أنه لكي نفهم رسالة الله للإنسان يجب أن لا نقرأ النص خارج ثقافة و فكر و لغة الشعب اليهودي في ذلك الوقت، على أن نعي جيداً أن ما استخدمه الله من تعبيرات و ثقافة إنسانية ليس بالضرورة صحيحاً تاريخياً و لكنه إعتبر صحيحاً عند الشعب اليهودي. مثلاً، نقرأ في (تك ٣٠) حادثتين كلتاها تحلمان فكراً ثقافياً سائداً في عصرهما مع كونهما خاطئتين بمقاييس اليوم، حمل راحيل بسبب اللقاح و وحَم غنم لابان (تك ٣٠ : ٤١). و بالرغم من خطأ هذا المعتقد الشائع ثقافياً إلا أن الكاتب قد تعامل معه بشكل طبيعى، فنجده يبرر زيادة غنم يعقوب بأنه كان يصنع عيدان النّبات أمامها حين توحّم، و كانت النتيجة أنه إغتنى جداً. أي أن نعمة الله تعمل مع الإنسان في إطار ما يفهم، فنعمة الله هي السرّ الحقيقي وراء ما ناله يعقوب من بركة، و لكنه بالفكر البشري قد حاول أن يتدخل لزيادة الغنم عن طريقة تلك الخدعة. فإن كنّا نؤمن أن الكتاب المقدّس هو رسالة للأمس و اليوم و الغد علينا أن نفهمه كما كُتب في عصره و أن نُعيد صياغته في حياتنا اليوم و لكي نؤسّس للغد. الدّخول لمعق النصّ الكتابي يجب أن يُبنى على أن نفهم مقصد الكاتب و نضعه في أدوات العصر الذي نحياه، لا أن نخلط مقصد الكاتب بالأدوات التي استخدمها فتصير الأداة غاية في ذاتها. سأبدأ قرأتي في قصّة الخلق بجزء من كتابات العلامة أوريغينوس، بإعتباره أول من تطرّق لتفسير سفر التكوين على غير ظاهر كلماته. تأتي هذه الفقرة من الكتاب الرابع "في المبادئ": "٤ : ٣ : ١ [١٦]) لنجولن في الكتب، عبر مقاطع متنوّعة، لعلنا نحمل على فهم ما نقوله من خلال النصوص عينها. أي إنسان عاقل يُمكنه أن يفكر تفكيراً منطقياً يزعم بأنه كان يوم أول، ثم يوم ثان، ثم ثالث، و بأن المساء و الصّباح تمايزا في تلك الأيام، من دون شمس فيها ولا قمر ولا نجوم، بل من دون سماء في ذلك اليوم الأول؟ أنجدنّ إمرأ غيبياً يتوهم أن الله غرس كرجل مزارع أشجاراً في بستان، في عدن، إلى جهة الشرق، و إنه غرس ثمرة شجرة حياة، لها خشب يرى و يُلمس، بحيث أن من يأكل ثمر هذه الشجرة بأسنان جسدية يحيا ثانية، و أن من يأكل كذلك من شجرة أخرى ينال معرفة الخير و الشر؟. و عندما يُصور الله مُتجولاً في البستان بعد الظهيرة، و آدم مُختبئاً تحت الشجرة، لن يرتاب أحد، في ظني، من أن هذا كلّهُ قد رواه الكتاب بصورة مجازية لكي يدلّ بهذه الطريقة على بعض الأسرار^{٤١}".

(أ) قراءة في خلق الإنسان :

أعد الله الكون للإنسان و دعى الإنسان للوجود لكي يكون على صورته (١ : ٢٧)، الذّكر و الأنثى على السّواء كلاهما مدعو للصّيرورة تجاه مُشابهة صورة الله. و أوكل الله للإنسان عملاً هو إعمار العالم، هذا ما قيل فيه أن الله قد خلق آدم ليفلح الأرض و يحرسها (٢ : ١٥). لم يُوكل على العالم (الطبيعة) فقط بل على الحيوانات و الطيور و الأسماك أيضاً (١ : ٢٨، ٢٦)، و هذه الطبيعة ليست عبئاً عليه بل وسيلة يستطيع من خلالها أن يتطّلع الله^{٤٢}. يُخبرنا سفر التكوين أن الله قد خلق الإنسان، فهل يجب أن تكون قضيتنا اللاهوتية هي علاقة الله بالإنسان أم كيفية خلق الإنسان؟. بلا شك يتركز دور الدّين على إبتعلان علاقة الله بالإنسان و الإنسان بالله، أمّا كيفية الخلق فيختص بها علم الأحياء. لذا فأيّاً كانت طريقة الخلق ينبغي أن يظلّ التّعليم اللاهوتي مُختصاً بعلاقة الله و الإنسان فقط و ألا يتدخل في مبحث العلم و العكس، إذ لا يوجد تعارض يستدعي تلك المُواجهة الإثنان من الأساس، فالذين يبحث السّبب أمّا العلم فيبحث الكيف. و إذ لم يظهر هذا الفارق بوضوح بين مبحثي الدّين و العلم في القرون الأولى كما هو في عصرنا الحاضر، تتعامل الآباء مع نصوص الخلق بحسب ظاهرها فإعتبروها رواية حرفياً تُعلّل مبدأ الكون. ما يُهمُّ هو أن الله قد أوجد الإنسان محبوباً، ساعياً تجاه شركة الله بالنعمة المُعطاة له. خلقت المرأة من ضلع الرّجل بحسب الرواية التّوراتية لا لعلن طريقة خلقها بل عن عمق علاقتها بالرّجل، فعلاقة الزّوج بالزّوجة لا يجب أن تتطوي على شخص واحد مُتسلّط (أنانية)، و لا على شخصين مُفترقين، أي أن فكر الله تجاه الإنسانية هو من مُنطلق التّالوث بالأساس، فهو وحدة ما بين شخصين دون أن يفترقا أو يتلاشى أحدهما في الآخر.

عَدَم حَجَل الإنسان من غريه هو تعبير عن حالة السّذاجة أو عَدَم المعرفة^{٤٣}، و من هنا ينبغي أن ننظر لرواية التكوين بمزيد من العمق. فبدون المعرفة لا يتعرّض الإنسان لمعركة الإختيار ما بين مُتناقضات (و هذا ما لم يكن يوماً حقيقة في تاريخ البشريّة)، و لكنه على الجانب الآخر لا يُعتبر حراً لأن الحرّية هي إختيار في ذاتها. أي أن مُعطيات القصّة حتّى الآن هي وجود إله مُحب للبشر، خلق الإنسان ليدخل في شركة حُب معه، و لم يخلق الإنسان جنساً واحداً مُكتفياً بذاته بل خلقهما ذكراً و أنثى لكي يكون لكلّ منهما الرّغبة في الإنفتاح على آخر. هذا الإنسان -الذي يُعبر عنه إنسان ما قبل السّقوط في الرواية التّوراتية- هو الحالة التي تشهّي أن تُدركها البشريّة. لذا قدّمت شجرة معرفة الخير و الشرّ و كأنها رأس الدّاء، و لهذا ينبغي أن نسال بأيّ منطِق نُعتبر معرفة الخير رغبةً محظورة؟. تُقدّم الرواية شجرة واحدة لمعرفة الخير و الشرّ أي أن المعرفة تُؤدّي لإدراك الخير و الشرّ معاً. ليست الشجرة شرّاً في ذاتها و لكن ترسم الرواية التّوراتية صورة للإنسان

^{٤١} "في المبادئ" ترجمة الأب جورج خوّام البولسيّ، ص ٣٩٧-٣٩٨.

^{٤٢} من هنا ظهر مبحث لاهوتي جديد و هو "لاهوت البيئة".

^{٤٣} القديس إيرينيوس : "كان آدم كالطفل الذي لم يكتمل إدراكه بعد، وكان من الضروري له أن ينمو ويصبح كاملاً" في الكرازة الرسولية (١٢).

الذي لا يعرف و يسعى تجاه المعرفة، هذا الدافع القوي (الذي اعتُبر شراً و شُخص في الحبة) دائماً ما يغلب الإنسان فتمتد يده ليقطف ثمرة المعرفة فيدرك الخير و الشر و يعاني من أزمة التناقض.

أعود لتعريف الأسطورة مرة أخرى، فهي "واقع إنساني في سياق قصصي غير تاريخي". الواقع الإنساني في رواية الخلق و السقوط هو أن الإنسان يخشى المعرفة لأنه حينما يعرف يختار ما بين متناقضات بشكل أو بآخر يشتهيها جميعاً، فلهذه رغبة و إندفاع تجاه الله الذي دُعي للصيرورة على صورته، و في الحين نفسه يشتهي أن يختبر المجهول ليعرف، أو ما قد نسّميه ما تحببه الوصية، لأن ما هو ممنوع هو مرغوب. لهذا وُضعت شجرة المعرفة في مقابل الحياة، لأن المعرفة صارت عبئاً ثقيلاً على الإنسان حتى تمّنى لو كان الاختيار ما بين كلاهما ليختار الحياة و يتخلص من أزمة الاختيار. هذا الواقع الإنسان لا يختص بزمان معين، بل مُعاناة سيحياها الإنسان في أي عصر كان، أما مُعطيات الرواية ذاتها هي التي تخضع للزمن و المكان و اللغة. يرى الكاتب بثقافته اليهودية أن حياته في الوصية لأنه بعدم مخالفة الوصية يحتفظ بشركته مع الله. و لأن الحرية تتطلب إختياراً و الإختيار يتطلب معرفة عبر عن ما يدفعه لمخالفة الوصية بأنه المعرفة ذاتها^{٤٤}، حتى و إن تضمنت تلك المعرفة معرفة الخير أيضاً.

(ب) قراءة في السقوط:

السقوط هو النتيجة المحتومة حينما يواجه الإنسان الوصية، لأن الإنسان حرّ و في حريته يختار ما بين متناقضات يعجز عن إختيار أفضلها في كثير من الأحوال. فهو مخلوق في صيرورة تجاه صورة الله و في نفس الوقت تُحتم عليه طبيعته أن يواجه الضعف، فمحدوديته و إحتياجاته تجعله يقف بعيداً عن الصورة الإلهية بينما تساميه و عقلانيته تجعله يعلو فوق الخليفة كلها. يرد السقوط كحدث يُعكّر صفو الإنسان و يدفعه للهموم و الضيق، إلا أن الواقع و التاريخ يدفعنا لقراءة مختلفة، فتلك الحالة الفردوسية لم تكن يوماً من مراحل تاريخ الإنسان، بل هي الحالة المرجوة التي يفشل الإنسان في تحقيقها، و السقوط هو إستيقاظ الإنسان على حقيقة واقعه بأنه عاجز عن الكمال. فالإنسان لم يكن أبدياً يوماً، بل يسعى تجاه الأبدية و عجزه عن تحقيق كماله و الإلتصاق بالله هو السقوط الذي لم يحدث كحدث تاريخي بل أمر واقع تعيشه الإنسانية جميعها في كل وقت على مستوى الوجود. بمعنى آخر، السقوط هو حالة التوسط بين الإتجاه لصورة الله و الإنحدار للعدمية. الإنسان يعاني تلك الحيرة منذ أن وُجد، فهو الكائن الحر فائق الذكاء مقارنة بالخليفة الأخرى و لكنه أيضاً الكائن الأكثر شعوراً بالألم و العجز إذ يقف بعيداً عن الكمال و الصورة التي دُعي أن يتجه إليها. قصة الخلق و السقوط ليست رواية عن ماضي بل عن حاضرنا الذي نعيشه، تلك المُعاناة الإنسانية التي نُعانيها اليوم هي ذاتها ما نقرأه في سفر التكوين. جميعنا يسعى أن يحيا شركة مع الله، في حين نعجز عن تلك الشركة إذ نُعاني من فشل الإختيار، هذا هو السقوط عينه. ليس آدم و حواء إلا نحن، و ليس ثمة سقوط في الماضي بل نحن الآن نسقط. هذا ما صاغه كاتب السفر بمُعونة الروح في تلك السيرة المُوجزة، إن الإنسانية تسعى للأبدية التي لن تتحقق سوى بشركة الله و في سعيها دائماً ما تُعاني السقوط، أما تلك الحالة الفردوسية فهي ما يسعى الإنسان لأن يحياها لا ما كان يحياها في الماضي، فذلك الزمن الفردوسي لم يتحقق في التاريخ البشري إطلاقاً. فقصة السقوط هي رواية الفشل اليومي في الحياة بحسب الوصية، أن يعجز الإنسان عن الكمال في كل لحظة من لحظات حياته، هذا هو الموت بعينه.

ليس السقوط حدثاً عرضياً تسبب فيه فردان من آلاف السنين، فالنظر للإنسان ككيان كان في الأعلى ثم إنحدَر إلى الصورة الحالية - المدعوة ساقطة - هو ما يجعلنا ننظر لعمل تجسد الكلمة و كأنه نتيجة (رد فعل) للسقوط، و إنما التعبير الأكثر إظهاراً للمعنى هو "السقوط" أي الجنين غير المُكتمل. الجنين الإنساني -الذي يتجه نحو الكمال الإنساني الحقيقي- ينمو نمواً متصاعداً تجاه الإنسان الكامل، هذا ما عبّر عنه كاتب سفر التكوين بشخص آدم -و حواء التي من آدم- قبل السقوط. آدم هو تعبير عن محاولات الإنسان للوصول للكمال، و ما يُشير إليه السقوط هو عدم قدرة الإنسان على الإحتفاظ بالخطوات التي خطاها تجاه الكمال، و السبب هو أن الإنسان مازال جينياً غير مُكتمل، سقطاً. لسنا بعد نتحدث عن سقوطاً و إنما عن رحلة تصاعد إنساني تجاه الملء- يشوبها الفشل، أي أن كاتب سفر التكوين عبّر عن مأساته الإنسانية في إطار قصصي يحوي الكثير من أفكار عصره، يشتهي أن يكون الإنسان الكامل الذي يحيا حياة مقدسة مع الله في راحة، يتسبّد فيها الخليفة و لا يعرف فيها الحيوان إفتراساً، و لكن كونه "سقطاً" بالفشل في تحقيق هذه الأمنية هو مركز قصة السقوط. السقوط الحقيقي هو البقاء في حالة اللا إكتمال، البقاء في حالة الجنين غير المُكتمل، هذا الجنين الذي جاء للوجود و لكنه لا يستطيع أن يحيا الوجود بدون أن يكتمل، أي أن الإنسان الحالي يقف ما بين نقيضين هما الإنسان و اللا إنسان. يُمكنك أن تقرأ قصة خلق الإنسان في سفر التكوين عكسياً كيما يتضح الأمر، الإنسان هارب يُعاني من صدع النقص و اللهث وراء الكمال، في الوقت نفسه يرى هذا الكمال المنشود يتمثل في وجوده في نفس الأرض في حالة مُصالحة مع نفسه أولاً و مع الله، و مُصالحة مع الطبيعة و الحيوان حيث يتسبّد عليها جميعها، و في ذات الوقت يعجز عن الدخول إلى هذه الجنة المُمتلئة سلاماً و مُصالحة إذ يفشل يومياً و في كل ساعة في أزمة الإختيار، و يومياً يمد يداً تجاه ثمرة الفساد و النقص ليأكل منها و يعود إلى حيث بدأ^{٤٥}.

^{٤٤} نجد هذه القراءة أيضاً في فكر الفيلسوف الألماني هيجل : "على الرغم من أن القصة (قصة السقوط) تجعل من الحبة مثيراً خارجياً يدفع الإنسان إلى التخلّي عن بساطته الأولى، إلا أن الحقيقة هي أن الوقوع في التناقض و إستيقاظ الوعي ينبع من طبيعة الإنسان ذاتها". كتاب "المنهج الجدلي عند هيجل" تأليف إمام عبد الفتاح إمام، ص ٤٩.

^{٤٥} من مقال سابق بعنوان "السقوط الإنساني".

لا شك أنه حينما تختلف القراءة اللاهوتية لسيفر التكوين لابد أن تُعيد ترتيب أفكارنا بخصوص تدبير الخلاص، و لست أقول أن ما سأكتبه هو إيمان آخر، بل قراءة لاهوتية جديدة، فالإيمان ثابت والقراءات اللاهوتية تتجدد لتشمل كل عصر بما يتطلب. وقد يتبادر سؤال ”لماذا لا نستخدم قراءة الآباء عنها؟“، لعدة أسباب أولها أن معطيات عصر الآباء تختلف اختلافاً كبيراً عن معطيات اليوم، كما يشكل العلم والدين اتجاهين غير متقاطعين و غير متناقضين على خلاف عصر الآباء، فلا يجب أن يُفسر الخلق بنصوص التكوين كما لا يجب أن نفرض على الدين أن يُبرهن بالعلم. لقد استعان الآباء أنفسهم بأدوات التفكير المتاحة في عصرهم كالفلسفة واللغة، فكان لاهوتهم و قرائتهم تنبع من قلب تلك المعطيات، لذلك فأغلب الأسس الفكرية في السنته قرون الأولى و التي إعتبرت بديهيات منطقية هي ذاتها ما سجلها أفلاطون^٦ و أرسطو. أما اليوم في عصر الإنفتاح الفكري و إتضاح غاية العلم و الدين صارت تلك القراءات تميل للسداجة لا للخطأ، فليس من المنطق أن تعيش المسيحية ذات الألفي سنة بفكر عمره خمسمائة سنة و تتوقف عنده، لا ينبغي بعد أن نترك تلك الهوية -ما بين الفكر الإنساني في عوممه و ما بين الفكر المسيحي- للإزدیاد. في الفصل السابق قُدمت قراءة سريعة للسقوط أمّا في هذا الفصل فسأقدم بإيجاز قراءة أولية للخلاص، على أن تتبعها مقالات أخرى أكثر إستفاضة.

من خلال القراءة السابقة في قصة الخلق نرى أن الإنسان يعاني من مشكلة الاختيار و الاختبار، فإرادته الواعية تجعل منه مؤهلاً أن يختار و يختبر أمور عدّة منها ما هو لصالحه و ما هو ضده. أي أن الاختيار نابع عن إرادة حرة لا عن دافع دفين في الإنسان لإختيار الشر كما يُقدّمه اللاهوت المسيحي التقليدي. ذلك الشغف الذي يداعب فكر الإنسان لإختيار كل ما هو ممنوع و محظور حتّى و إن لم يكن شراً، فإن منع عمل خير لوجدت الجميع يتسابق إليه، فالممنوع مرغوب. يُمكن أن نجد مثلاً جيّداً في الصراع الشيوعي المسيحي في الإتحاد السوفييتي، فحينما جرّم الدين إتسعت المسيحية في الجحور، و عندما سقط الإتحاد السوفييتي صارت روسيا مركز من أكثر مراكز المسيحية تشدداً، و لعلّ هذا أيضاً ما نقرأه في تاريخ الكنيسة المسيحية بأجمعها التي كانت تزداد كُلماً تُضطهد.

لا يوجد عُصر دخيل على الإنسان يُسمّى شر و الموت، هذا ما أشار له أغسطينوس بقوله ”الشر لا كيان له بحد ذاته، لأنّه لا وجود لما نُسميه شراً ما لم يوجد الخير، إذ يستحيل وجود أي شرّ حيث لا وجود لأي خير“^٧. و ما دامت للإنسان قدرة على خير فله قدرة أن يختار الشرّ أيضاً، لذا فالصورة التي يُقدّمها الآباء -و التي تنبع من سيفر التكوين- هي صورة أسطورية لم تتحقّق في الواقع البشري أبداً. لا شك أن تلك السطور القليلة التي كتبها أغسطينوس عن الشرّ تسترعي الإهتمام، فالإنسان بحسب تعبيره يموت لأن طبيعته تتحل، و هذا ما يقوله أثاناسيوس ”الإنسان فإن طبيعته لأنه خلق من العدم“^٨، و لكنّه بعد ذلك يُعزي الموت للإنفصال عن الله، فالموت هو غياب الحياة، و ليس دخيلاً له جوهر ناتج عن الخطيئة. و الوصيّة ليست أمراً إلهياً مُرتبطاً بالموت الجسديّ، فالجميع سيُعبّر بوابة ذلك الموت سواء أطاع الوصيّة أم لم يُطيعها. أمّا الموت الحقيقي هو رفض محبة الله، و هذا الموت لا يُمكن بأي شكلٍ ما الأشكال أن يدعى عقوبة، لأنّه أينما ذُكر الحبّ فهناك حرية و إن ارتبط الأمر بالعقاب غاب الحبّ، لذلك فالوصيّة هي همسات حُب إلهي في أذني الإنسان، لا ترتبط بعطايا أو عقاب، بل حُبّ مجانيّ فقط.

إن كان الشرّ لم يدخل للبشرية بالسقوط، فلماذا و من ماذا الخلاص ؟:

المؤلم في الوضع الإنساني هو كون الإنسان وسيطاً بين طرفين لا يُمكنه أن يصل لملء أحدهم، فمن ناحية هو أرقى من الحيوان و في نفس الوقت أدنى من الله (المطلق). يتأرجح الإنسان ما بين وجود حقيقي و عدم حقيقي، و يعجز عن أن يُحقّق ذلك الوجود كما أيضاً تفرض عليه الحياة أن لا يتلاشى في العدم. يعرف أنّه مُتجه لظاهرة غريبة هي الموت و أنّه لا يوجد مهرب منه، و هذه هي الغاية في الأسطورة البابلية، جلجامش يبدأ رحلة البحث عن نبتة الحياة كي يتجنّب الموت و لكن تسرقها الحيّة لتعلن أنّه لا مفرّ من الموت. لذلك فالخلاص الذي تُقدّمه المسيحية ليس خلاصاً من شيء أضيف للطبيعة البشرية -أي الموت- كأسطورة حصاة الشرّ السوداء التي تسكن في القلب، بل الخلاص هو أن يتحقّق وجود الإنسان في الله، و أن يتخلّص من ذلك الصراع ما بين حقيقة الوجود و العدم. تلك المبادرة تأتي من طرف الله، فانه هو الحبّ المجانيّ المطلق. ليس الخلاص تحقيقاً لنظريات العدل التي إبتكرها المسيحيين الأوائل و مؤخراً الحركات الإصلاحية بشكل أكثر تطرفاً، و لا كيما يُحافظ على وعيده بأن الإنسان موتاً يموت^٩. فالنّعليل الأمثل لتدبير الخلاص هو عبارة الأب فرانسوا فاريون اليسوعيّ ما مضمونه ”إن كان الله محبةً فانه لا يعمل إلا ما عمله المحبة“، لا مبرر للتجسّد سوى الحبّ، و أي محاولة لتعليقه بالعدل هي محض هراء ينبع من صورة مشوهة عن إله يُطلق أحكام بالموت بشكل عشوائي ثم يتحایل لكي لا يُخلّ بحكمه و يُحقّق رحمة.

^٦ الي بلقيس أثاناسيوس بالعظيم عند اليونانيين في ”تجسد الكلمة“ ٢ : ٣ و يقتبس منه كيرلس قواعد المنطق في كتاب الكنوز في الثالوث.

^٧ كتاب ”القديس أوغسطينوس و الأوغسطينية“ لهنري - إيرينيه مارو، ص ٧٤.

^٨ كتاب ”تجسد الكلمة“ ٤ : ٦.

^٩ المرجع السابق ٦ : ٣.

لماذا إتحد الله بالإنسان ؟:

ليس في مقدور الإنسان أن يتسامى تجاه الله إن لم يتنازل الله للإنسان، و لأن الأمر يبدأ و ينتهي عند الحُب فالتَّجسُّد هو المسافة التي قطعها الله تجاه الإنسان كيما يُعلن حُبّه و يكشف ذاته فيعرفه الإنسان بجلاء. حينما نتأمل أعمال الله تجاهنا علينا أن نخرج من قوالب العدالة و البرّ و غيرها، بل فقط الحُب، الذي إن أردنا أن نتذوّقه علينا أن نضع أنفسنا موضع تلك التي أمسكت في الفعل و سيقت لتُرجم أمام يسوع في إنجيل الحُب -بشارة يوحنا-. الإصحاح الثَّامن. نجد يسوع لم ينتفض ليحقّق عدلاً بشريّاً زائفاً، بل تحدّى مُجتمع بأكمله و وقف في صف زانية بحسب نظرتهم للشريعة تستوجب الموت، و بالحُب خلّصها خالقاً لها حياة جديدة تتذوّق فيها حُباً جديداً بعدما أمضت سنيهاً عديدة في حُب زائفٍ و قتي مع كثيرين.

الأبدى في الزمنى، اللا محدود إقتبل المحدود :

إن لم يفتح الله على الإنسان لصار الإنسان سجين محدوديته، بلا غاية ولا هدف، ذو آمال تستحيل التحقيق. تطلّع الله للإنتحاح على الإنسان لا يُمكن أن أن يفهم بعيداً عن ثلوثية الله، فإن لم يكن الله مُنفصلاً في ذاته لما إفتح على الإنسان، لذا يقول الأب فرانسوا قاريون اليسوعي "لو لم يكن الله ثلوثاً لكانت على الأرجح مُلحداً"،^{٥٠} لأنه لم يكن لينفتح على آخر -هو الإنسان- و لكانت الحياة عبثية ما بين طرف سامٍ مُعزل و طرف أرضي عاجز و لا مجال لتلاقٍ فيما بينهما. ثلوثية الله التي هي إفتاحه على آخر بلا حسد أو رغبة إمتلاك هي المحيية عينها، أن تُحب الآخر لشخصه لا لكونه "أنت"، لذا حينما نتكلّم عن الله الثالوث لا نحتاج شرحاً لاهوتياً مُعقداً كالشروحات الهلينية "اليونانية" في القرون الأولى، بل فقط أن ننظر للثالوث كعلاقة محبة و إفتاح على آخر بلا رغبة تسيدٍ ولا إمتلاك، لذا يقول الابن للأب "جَمِيع ما هو لي فهو لكّ وما هو لكّ فهو لي" (يو ١٧ : ١٠). خلق الإنسان هو ثمرة هذا الإفتتاح، أذكر كلمة قالها الأب هنري بولاد اليسوعي في حديثه عن خلق الإنسان "أن الله قد ضحّى بقدر من حُرّيته حينما خلق الإنسان قادراً على أن يقول له كلمة «لا»" لأن تلك الهبة المجانية لا تسعى للتسيد و لا الإمتلاك، بل حُبٌ صرف. و كما كان الخلق الأول -أي دفع الإنسان للوجود- هبة مجانية كذلك أيضاً الخلق الثاني الذي هو التَّجسُّد فهو أن الله قد وهب نفسه للإنسان بالمجان، لا لإيفاء عدل ولا لكي يحفظ كلمته بأن الإنسان لايدّ أن يموت. دخل الله لعالم الإنسان كيما يفتح باباً لا يُغلق أمام طموح الإنسان، فالإنسان إذ هو عاقل يتأمل النهايات و يسعى دائماً لأكثر مما يمتلك، ذلك المحدود يسعى أن يتحد بغير المحدود في الأبدية. و لا شك أن تلك الطموحات و إن كانت قد إنعدمت لدى المُلحدِين إلا إنها قد إزدادت توهجاً لدى المسيحيين إذ رأوا في خروج الإنسان خارج كوكب الأرض بصيص ضوء تجاه تخطي تلك الحدود الذي لطالما ظلّوا أنها لن تُحترق. لا فقط حدود المكان بل و الزمن أيضاً، هذا كُلّه لن يكتسب المعنى إلا إن صارت الغاية أسمى من المادة و أرقى من الرغبة، إن صارت الغاية هي الحُب. أخذ الله الإنسان فإحتضنه و لن يتركه أبداً، هذا هو التَّجسُّد، أن الله نفسه قد صار إنساناً بكل ما تحمله الكلمة من معنى. و من خلال تلك الخطوة إستعلن الله نفسه للإنسان إنساناً من نفس طبيعته، لعل هذا ما عمل به الرسول بولس "صبرتُ لليهود كالتيهودي لأربحَ اليهود، و للذين هم في حُكم الشريعة كالذي في حُكم الشريعة مع أنّي لستُ في حُكم الشريعة لأربحَ الذين في حُكم الشريعة، و صبرتُ للذين ليس لهم شريعة كالذي ليس له شريعة مع أنّي لستُ بلا شريعة من الله لأربحَ الذين ليس لهم شريعة إذ إني في حُكم شريعة المسيح، و صبرتُ للضعفاء ضعيفاً لأربحَ الضعفاء، و صبرتُ للناس كُلّهم كُلّ شيء لأخّصّ بعضهم مهمّاً يَكُن الأمر" (١ كو ٩ : ٢٠-٢٢)، فالله قد صار إنساناً ليربح الإنسان و لا دافع سوى الحُب. !.

لماذا مات المحيي ؟:

دائماً ما إستغلّ موت المسيح على الصليب لإثبات وجود عقوبة كان على المسيح أن يحملها، في حين أن هذا الموت أبعد ما يكون عن العقوبة. إن كان الحُب يقف أمام الموت موقف العجز لكان إتحاد الله بالإنسان حدثاً عبثياً، أما العمق الحقيقي لتجسّد الكلمة هو أنه أحبّ حتّى الموت، لقد أحبّ معلناً أنه سيتمسك بالحُب و بإستعلان الأب للإنسان و أنه سيخوض أكثر الأحداث ظلمة في حياة كُل إنسان و -هُما الألم و الموت- ليعلن أن حُبّه لا يقف موقف عجز أمام الموت بل في اليوم الثالث يقوم. حُبّ الله للإنسان هو وعد بأن الإنسان سيجيا للأبد، و لكن لم يكتف الله بذلك الوعد بل أمسك بيد البشرية و عبر معها الألم و الموت، بهذا لم يصير الأمر وعداً بالأبدية بل صارت الأبدية الآن و هنا. كما في حياته كشف الخطيئة و رفعها أي أبطلها -و ليس حملها و عوقب عليها- بإستعلان محبته للبشر هكذا بموته أمات سطوة الموت لأتّه عبره معنا و عبرناه فيه.

الله محبة تعنى قيامة الإنسان :

إن كان الإنسان يموت بلا قيامة فباطل ذلك الحُب، أما إن كان الله قد أحب الإنسان بالحقيقة فلا بد من قيامة. القيامة ليست قيامة يسوع بل قيامة الإنسانية جمعاء لأن ذلك الجسد هو نحن، و متى أمنا أن الله أحبنا نؤمن بأن ذلك الموت هو لحظة تعفيها قيامة لأن الحُب أقوى من الموت. و منذ الآن علينا أن نحيا تلك القيامة، لأنه يوجد كثيرون يعيشون الموت في كُل لحظة مُنتظرين من يُقيهم بالحُب. هؤلاء الجوعى و الذين ليس لهم من يعولهم، المرضى و مُنكسري القلوب، المسجونين و المطرودين، هؤلاء الذين قال عنهم يسوع أنّهم هو، يسوع جائع و مريض و مسجون و مطرود ينتظر منا أن نُقيمه بالحُب.

^{٥٠} كتاب "فرح الإيمان بهجة الحياة" ص ١٣٥.

المسيحية و المعنى :

حاول كارل ماركس أن يصنع تاريخاً للإنسان تتحقق فيه مساواة حقيقية بين أفراد المجتمع، و من مُنطلق هذه الفكرة ظهر النظام الشيوعي لكي يجد معنى أو بالأصح لكي يصنع معنى لذلك العالم غير المُتَّزن، فصارت الدولة مالك كل شيء و صار أفراد المجتمع مُساوون جبراً في الحقوق و الواجبات و الممتلكات. لقد كانت تلك المُعادلة مُحكمة، إلا أنه ينقُصها عامل واحد و هو المحبة. فالمعنى لن يوجد جبراً، بل المعنى يولد من قلب الحب. في الإصحاح الرابع من سفر الأعمال باع كل ذوي الأملاك أملاكهم و طرحوها عند أقدام الرُّسل حباً، فلم يصِر في كنيسة الله مُعوَز إذ إشتراك الجميع في كل شيء.

تُضفي المسيحية على الحياة الإنسانية معنى أعمق، فقد حوّلت شركة الله للإنسان في الألم و الموت تلك المُعاناة إلى رجاء، لا فقط رجاء بل ثورة حقيقية. فتورة يسوع على الألم جعلته يجول شوارع المُدن يشفي المرضى و ثورته على الموت جعلته يُقيم ابن أرملة نايين و ابنة يابرس و لعازر و في النهاية قام هو نفسه ليُعلن أن الموت لم يعد بعد موتاً، لم يعد ذلك الحدث الغامض المُرعب الذي جفّ له خلق الأبرار في تاريخ الإنسان. إن إكتسبت حياتنا ذلك المعنى لصرنا جميعاً يسوع الذي يجول يصنع خيراً، لعل هذا ما كان راسخاً في أذهان الرُّسل حتى إشتربت الكنيسة في كل شيء و لم يكن بينهم مُحْتاجاً (أع ٤ : ٣٤). و الآن، كم مُحْتاج تراه بعينيك يومياً ؟، و حينما أقول مُحْتاجاً لا أقصد مسيحي بل أقصد إنساناً، فيسوع لا يعرف ذلك التقسيم الذي إبتكره البشر على أساس اللون و الجنس و اللُغة و الدِّين. فإن كان الإيمان المسيحي ذو معنى بالنسبة لك فعليك أن تتدخّل بقدر ما تستطيع لِتُغيّر حياة هؤلاء، أن تصنع لحياتهم معنى كما صنع يسوع معنى حياتنا.

ابن الإنسان :

كثيراً ما لُقّب يسوع نفسه بابن الإنسان، و كثيرة هي الشُّروحات اللاهوتية لهذا اللُّقب. لكن بالنسبة لي لا يعني هذا اللُّقب إلا "الإنسان ابن الإنسان"، !. لقد قدّم يسوع حياة مسيحية تقوم على محورين لا يُقصي أحدهما الآخر، الله و الإنسان، على أن يُحقّق الإنسان إستعلان الله و يُحقّق الله معنى الإنسان. لقد كان الإنسان يسوع هو باب إستعلان الأب، في حين كان الأب هو معنى حياة الإنسان يسوع. ظل العالم لقرون عديدة -حتى بعد ميلاد يسوع- يتمحور حول الألوهة، و في العصر الحديث إذ بدأ كل شيء يتمحور حول الإنسان بدأت كلمات يسوع تبدو أكثر جلاءً. في القديم حين كان كل شيء -كما ذكرت- يتمحور حول الألوهة ظهرت عبادات الآلهة المُتعدّدة، و اليوم حين صار كل شيء يتمحور حول الإنسان ظهرت تيارات عديدة من الإلحاد. هذا التّضارب الحقيقي ما بين إقصاء الله و إقصاء الإنسان ينبع مع أفكار غير مُستقيمة عن الله و الإنسان، فالله لا يرغب أن يكون هو محور كل شيء، بل خلق الإنسان حرّاً عاقلاً و أعطاه الإختيار أن يرفضه أو يقبله، كذا الإنسان أيضاً إن إنغلق على ذاته صارت حياته درباً من دروب العبث و كدائرة مُغلقة ليس منها خروج. أمّا من يتأمّل حياة يسوع يجده الإنسان الذي يحيا من أجل المعنى و يموت في سبيله، في يسوع نجد الإنسان الحقيقي، الذي لا يذوب في الله بل يسعى أن يستعلنه للعالم أجمع و لكنّه أيضاً و في نفس الوقت لا يُقصي الله ليطلب ما لنفسه، بل بسُلطان نابع من إدراك حقيقي لتلك العلاقة المُستقيمة يقول أنه ابن الإنسان و ابن الله !.

إلى هنا أعانتي الربُّ

يُتبع في قراءات لاهوتية مُعاصرة أخرى ...